تحفة التاجر عند التقاط الجواهر

بقلم عادل شلار الرفاعي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الغني الحميد الكريم المعطي الذي خلق العباد ليربحوا عليه لا ليربح عليهم فهو غني عنهم لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معاصيهم ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين الحريص على هداية الناس والشفيق عليهم الذي دلهم على سبيل التجارة المفلحة الرابحة ، فتلا عليهم بيان الله الكريم : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *

وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)) سورة الصف آ١٠-١٣ فاستجابوا لله وللرسول لما يحييهم فكانوا رجالاً من طراز نادر وتجاراً رابحين فالحين ، مدحهم ربهم فقال جل جلاله : ((رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ* سورة النور آ٣٧-٣٨

وقال الله عز وجل في مدحهم وتكريمهم :

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ* سورة فاطر آ٢٩-٣٠

صلى الله على هذا النبي الأمي الطاهر الزكي الصادق الأمين سيد تجار الآخرة وسلم تسليماً كثيراً عدد كل ربح ومقدار طمع كل تاجر وعلى آله وأصحابه السائرين على طريقته المتمسكين بسنته الباذلين كل محبوب من الدنيا في سبيل نجاح تجارتهم مع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وبعد :

فقد رغب النبي صلى الله عليه وسلم أمته في التجارة مع الصدق والأمانة وحذرهم من اللعب واللهو فالتجارة إذا ألهت عن ذكر الله وعن الصلاة وعن الزكاة كانت لعباً ولهواً لأن التجارة الحقيقية هي التجارة مع الله بكثرة الذكر وإنفاق المال على المساكين .

دخل النبي صلى الله عليه وسلم إلى السوق ، ونادى على التجار بصوت عال ، قائلاً : ((ياَ مَعْشَرَ التُّجَّارِ)) فَلَمَّا رَفَعُوا أَبْصَارَهُمْ، وَمَدُّوا أَعْنَاقَهُمْ. قَالَ: ((إِنَّ التِّجَارَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فُجَّاراً، إِلَّا مَنِ اتَّقَى اللّهَ وَبَرَّ وَصَدَقَ)) رواه أحمدو الترمذي وابن ماجه

لذلك أعلن النبي صلى الله عليه وسلم أن التجار جميعهم فاسقون فاجرون إلاّ من رحم الله ، وهم الأمناء الصادقون .

تشريف التجارة والتجّار

تشريف التجارة :

إن التجارة من الحرف التي بارك الله فيها وشرفها باتجار سيد الأنام عليه الصلاة والسلام بمال زوجته الطاهرة خديجة رضي الله عنها ، وشرفها أيضاً بإنزال أحكامها المفصلة في الكتاب المبين وسنة النبي الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم .

تشريف التاجر :

تشرف التاجر بحظ وافر من وراثة النبي صلى الله عليه وسلم فهو يرث من صفة الأمانة من الأمين عليه الصلاة والسلام فهو يحافظ على مال الناس إذا شاركهم في أموالهم فلا يأكل من حقوقهم شيئاً وهو يرث من الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام صدقاً

في الكلام فلا يزور الحقائق ولا يحلف الأيمان ولا يغش في البضاعة ، لذلك ناله من الشرف مالا ينال غيره إلا الأنبياء والشهداء والصديقين ، فقد روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قَالَ رسول الله صَلى اللّهِ عَلَيهِ وَسَلَمْ : ((التَّاجِرُ الأَمِينُ الصَّدُوقُ المسْلِمُ مَعَ الشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) وفي رواية أخرى للترمذي والحاكم : ((التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة)) .

وإنما قال النبي صلى الله عليه وسلم التاجر الأمين الصدوق المسلم لأن الصدق والأمانة لا يأتيان من غير المسلم ولو أظهر غير المسلم الصدق والنصيحة للخلق والأمانة ، فإن ظهور الصدق منه هو الكذب بعينه لأنه يتظاهر بالصدق أمامك مرة أو مرات ليتمكن منك ويأكل مالك فيما بعد ويحاربك بمالك ويصد عن دين الله وهو ينسى الفقراء والمساكين ألا ترى إلا غير المسلم

من التجار لا ينفق المال إلا في سبيل شهواته وفي سبيل صد المسلمين عن دينهم وتحريف قلوبهم وأفكارهم الصحيحة .

- تشرف التاجر الذي ينفق ماله على يتامى المسلمين وعلى الأرامل والمساكين والمصابين الذين لا يقدرون على الكسب بأن كتب لهم ثواب العبّاد الذين يقومون الليل ويصومون النهار ويحفظون ثغور المسلمين من أعدائهم ، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل والصائم النهار)).

- شرف التاجر بأن جعل النبي صلى الله عليه وسلم له أجر الشهداء إذا كان متمسكاً بسنة النبي صلى الله عليه وسلم عند فساد الناس ، روى البيهقي والطبراني

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((المتمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر شهيد)) وذلك لأن المتمسك بالسنة عند غلبة الفساد لا يجد من يعينه بل هو يحسن للناس وهم يؤذونه ويهينوه فبصبره على ما يناله بسبب التمسك بسنة النبي صلى الله عليه وسلم من الأذى يجازى برفع درجته إلى منازل الشهداء .

توجيهات نبوية للتجار

– الحرص على البكور :

وجه النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى استلام النهار من أوله والاكتساب لأن أول النهار هو الوقت الطويل العريض المبارك للاكتساب والمعيشة قال الله سبحانه لعبده النبي الأمي صلى الله عليه وسلم يرشده إلى وقت

الكسب المناسب : ((إن لك في النهار سبحاً طويلاً)) أي جعلنا لك أيها المؤمن بالله النهار من أوله بعد شروق الشمس إلى آخره وهو وقت العصر لتكتسب فيه إذا فيه البركة والكفاية لحاجاتك وما قبل هذا الوقت وما بعده هو لذكر الله والصلاة وقراءة الأوراد .
روى الترمذي وأبو داود وابن ماجه عَنْ صَخْرٍ الْغَامِدِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: ((اللّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا)).

قَالَ : وَكَانَ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً أَوْ جَيْشاً، بَعَثَهُمْ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ، وَكَانَ صَخْرٌ رَجُلاً تَاجِراً، فَكَانَ يَبْعَثُ تِجَارَتَهُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ فَأَثْرَى وَكَثُرَ مَالُهُ ، حتى كان لا يدري أين يضع ماله .

– التجاوز عن المعسرين :

أرشد النبي صلى الله عليه وسلم التجار إلى خصلة عظيمة نافعة لهم وهي إنظار المعسرين من الناس وعدم التشديد عليهم بالمطالبة ، والتجاوز عن ديونه عليهم أفضل وأكمل .

قال الله تعالى : ((وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون)) سورة البقرة آية ٢٨٠

وهذا التدبير من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم كرم فائض من جناب الله تعالى على التجار إذا أوجد لهم سبلاً ينجون بها يوم الدين إذا قصروا في أداء حقوق الله عز وجل روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال: ((كان تاجر يداين

الناس ، فإذا رأى معسراً قال لفتيانه : تجاوزوا عنه لعل الله يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه)) فانظر إلى عناية النبي صلى الله علية وسلم وحرصه على سلامة التجار المسلمين وانظر إلى كرم الله على هذا التاجر الذي كان يفعل الخير ويظن بربه الخير والله عند حسن ظن عبد به فليظن العبد بربه ما يشاء .

– تطهير المال :

أرشد النبي صلى الله عليه وسلم التاجر إلى الصدقة بعد كل بيعة حتى يطهر المال من اللغو والتورية والموروابة التي تحدث غالباً بين التاجر والزبون .

روى الترمذي وأحمد عن بنِ أبي غرزةَ، قال : خرجَ علينا رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عَليهِ وسلَّم ونحنُ نُسمَّى السَّماسرةَ

، فقال : ((يا معشرَ التُّجَّارِ إنَّ الشَّيطانَ والإثمَ يحضرانِ البيعَ فشُوبوا بيعكُم بالصَّدقةِ)).

- ترك التجارة :

أرشد النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى الاحتراف بالحرف التي تحفظ كرامة المؤمن وترك بعض الحرف التي لا تناسب المروءة والتي تؤثر على سلوك المسلم كالحرف التي تجره إلى الأوساخ والنجاسات التي تسبب له الحرج في أداء الصلوات ، وكالحرف التي تجره إلى النفاق والفتن معاشرة أهل الفساد ومنها ترك التجارة عند غلبة الفساد عند عدم قدرة التاجر بالتمسك بالتقوى والخوف من غلبة أهل الفساد على دينه وعرضه.

روى الإمام أحمد وأبو داود عن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول :

((قد أعطيت خالتي غلاماً وأنا أرجو أن يبارك الله لها فيه وقد نهيتها أن تجعله حجاماً أو قصاباً أو صائغاً)).
وإنما نهاها النبي صلى الله عليه وسلم أن تدفعه إلى تعلم هذه الحرف لأنها من الحرف الخسيسة التي تحط من مروءة المسلم وذوقه العالي الرفيع لأن الحجامة يستشفى بها عند الحاجة فإذا كثر المحترفون بها كثر الاطلاع على العورات وكثر التداوي بها لغير الحاجة مما يؤثر على صحة جسم المسلم وجماله .

والقصابة حرفة تمنع المسلم كثيراً من الخيرات فهو يتحاشى أداء الصلوات في المساجد بسبب الأوساخ والنجاسات التي تصيبه والرائحة الكريهة فهو يجد مشقة في أداء الواجبات التي افترضها الله على المسلمين .
حرفة الصياغة لا تناسب المسلم لأنها تعرضه للفتن لأن أغلب زبائن الصائغ من النساء اللواتي يتهيأن للزواج

فيعرض للصائغ من فتنة النساء ما يخرب عليه دينه ويجره على الزنا .

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن حرفة التجارة لغير القادر على سلوك سبيل الخير فيها ، روى الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((يا علي لا تكونن فتاناً أو قال : مختالا ولا تاجراً إلا تاجر الخير فإن أولئك هم المسوفون في العمل)).

لأن التجار يقعون في التسويف فتلهيهم التجارة عن ذكر الله وعن الصلاة ويعاشرون أهل السوء والمنكر فلا ينكرون عليهم وربما رضوا بالمنكر وربما صاروا يدافعون عن المنكر وعن أهله و يخترعون الحجة ليصدوا عن سبيل الله ، بل ويصبحون هم المفتين الذين يعلمون الناس دينهم وهكذا ينشرون الفساد في الأرض

ويصبحون أرباباً يشرعون للناس الحلال والحرام على حسب أهوائهم .

ولقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بسيطرة التجار على الناس حيث يصبح التاجر هو الذي يفتي الناس ويستنبط لهم الأحكام الشرعية على هواه .

روى النسائي عن عمرو بن تغلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إن من أشراط الساعة أن يفشو المال ويكثر وتفشو التجارة ويظهر العلم ويبيع الرجل البيع فيقول : لا، حتى أستأمر تاجر بني فلان ويلتمس في الحي العظيم الكاتب فلا يوجد)).

أي من علامات قرب القيامة ظهور الجهل بسبب اهتمام الناس بأمر الدنيا حتى يشاور الناس التجار في أمور الدين ، ولا يوجد كاتب يكتب بالعدل ، ومعنى

يظهر العلم أي يزول ويرتفع ، أي يذهب العلم عن وجه الأرض بذهاب العلماء الورعين .

أو المعنى : يظهر الاحتياج على العلم وأهله.

- أرشد النبي صلى الله عليه وسلم التجار إلى الكرم وسخاوة النفس في إنفاق المال لأن إنفاق المال نوع من أنواع الشجاعة وإمساك المال من الجبن .

روى القضاعي بسند حسن عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال: ((التاجر الجبان محروم والتاجر الجسور مرزوق))

أي التاجر الذي يجبن من البذل للمساكين لعزة المال عنده وخوفه من عدم عودة المال إلى يده وينشأ ذلك من ظلمة الشرك والشك فيحرم الرزق فيعذب قلبه ويتعسر أمره والجسور يقدم بسخاوة نفس على بذل ما

في يده ومنشأه من كمال التوحيد والثقة بوعده تعالى فتسهل عليه أسباب الرزق ببركة إيمانه وثقته بموعود الله تعالى ، ولذلك فإن بذل الدنيا سبب كل ربح كما سنبينه واضحاً في الأحاديث التالية :

روى البزار والطبراني بإسناد حسن عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : دخل النبي صلى الله عليه وسلم على بلال وعنده صبر من تمر (كومة صغيرة من التمر) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ما هذا يا بلال؟)) قال : أُعدُّ ذلك لأضيافك ، فقال : ((أما تخشى أن يكون له دخان في نار جهنم ، أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً)).

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ((ما من يوم يصبح العباد فيه ، إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما: اللهم

أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً)).

والمعنى أن التاجر إذا جمع المال وأمسكه عن مستحقيه تعرض لنار جهنم يوم القيامة ، وتعرض للتلف في الدنيا ، وهذا معنى من معاني الحرمان من الرزق .

نماذج من التجار :

- دخلت العير إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم تحمل تجارة لسيدنا عثمان بن عفان رصي الله عنه فاجتمع عنده التجار ليشتروا منه البضاعة ، فأبطأ عليهم ولم يبع منها شيئاً فقالوا نعطيك فيها ربحاً بكل درهم درهماً واحداً ، فأبى عثمان رضي الله عنه فزادوه ، وقالوا : نعطيك بالدرهم درهمين ، فأبى وقال : قد زيد لي فيها أكثر فقالوا : نعطيك بالدرهم ثلاثة دراهم ،

فأبى وقال : قد زيد لي فيها أكثر من ذلك ، فقالوا : نعطيك بالدرهم أربعة دراهم ، فأبى وقال : قد زيد لي فيها أكثر من ذلك ، فغضبوا ، وقالوا : من يزيدك أكثر من أربعة دراهم وهذه التجار كلها هنا ؟! قال : قد زادني فيها ربي بالحسنة عشر أمثالها ويزيد إلى ما شاء الله ، اشهدوا أن هذه التجار كلها صدقة على فقراء المدينة .

– اشترى عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما أرضاً بعشرين ألف درهم ، فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه من يشترى هذه بمثل هذا ؟! فهي لا تساوي عشرين ألفاً ، ثم إن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما صلى في الأرض ، ثم قام من صلاته وأمر الخادم أن يحفر موضع سجوده فحفر فخرج بئر كثير الماء ، فقسم الأرض ثمانية أقسام أبقى لنفسه القسم الذي فيه البئر

وتصدق بالباقي على الفقراء وسقى جميع القطع من بئر أرضه ، ثم إن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، طلب من عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما أن يبيعه قطعة الأرض التي فيها البئر بعشرين ألف درهم فأبى عبد الله ذلك .

- كان تاجراً أميناً صادقاً وكان له حانوت يبيع فيه أقمشة وكان من طريقته في التجارة انه إذا باع أخرج حاجة عياله وحاجة حانوته الضرورية ثم يتصدق بجميع المال الفاضل ، ولما كبر بعض أولاده عملوا عنده في التجارة فلما رأى الأولاد كثرة إنفاق أبيهم خافوا على أنفسهم أن يقعوا فريسة الفقر وقالوا فيما بينهم إن أبانا يهلك أموالنا ثم احتالوا عليه ليبعدوه عن المحل فأبعدوه ، فمضت عليهم أيام لم يبيعوا شيئاً فعرفوا عندها أن إنفاق أبيهم الكثير على الفقراء كان من أسباب كثرة

وبركة أرزاقهم فتابوا إلى الله وأرجعوا أباهم ليكونوا خدماً له في أمر تجارته.

والحمد لله ذي النعم المتواليات والصلاة على سيد اهل الارض والسموات العبد الكريم محمد عليه الصلوات والتسليمات ، وبعد : فقد انتهت هذه الرسالة اللطيفة المذكرة لمن يريد أن يصبح تاجراً بمعرفة شرف التجارة والتاجر والهروب من ممارسة ما حذر منه النبي عليه الصلاة والسلام من شرور التجارة والتجار .